مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 18، العدد 71 (صيف 2007)، ص 131

قراءات

كتب بالعربية

التطهير العرقي في فلسطين
The Ethnic Cleansing of Palestine

Ilan Pappe
Oxford: Oneworld Publications Limited, 2006. 313 pages. $27.50

كنت أدرك دائماً أن سبب بقاء عمتي ماري كوار في عكا سنة 1948 هو أن ابنتها الصغرى، أمل، أصيبت بالتيفوئيد ولم تستطع السفر. لكن بعد قراءة كتاب إيلان بابِه، "التطهير العرقي في فلسطين"، عرفت كيف أصيبت بالمرض. فعند الكتابة عن حملة الهاغاناه لاحتلال عكا، وصف بابِه كيف ثبت مرة أُخرى "أن نابليون لم يكن وحده من اكتشف أن من الصعب إخضاعها [عكا]." عندها لجأت القوات اليهودية إلى الحرب الكيماوية لإخضاع المدينة، واتضح "تلويث المياه بجراثيم التيفوئيد." وتصف تقارير مبعوثي الصليب الأحمر الدولي المحليين، المرفوعة إلى مقرهم الرئيسي، "تفشياً مفاجئاً لمرض التيفوئيد. بل حتى تشير، على الرغم من لهجتها الحذرة، إلى تسمم خارجي كتفسير وحيد لهذا المرض." وبحسب بابِه، لم يترك هؤلاء المبعوثون "أدنى شك فيمن يشتبهون: الهاغاناه" (ص 100).

كشف كتاب بابِه ما هو أكثر من اللجوء المبكر إلى الحرب الكيماوية. لقد كبرتُ وأنا أسمع عن المذبحة في دير ياسين، لكنني لم أعلم أنها كانت مجرد واحدة من عشرات المذابح التي خُطط لها وارتكبت على أيدي القوات الصهيونية في أرجاء فلسطين الانتدابية. إن حجم الدليل التاريخي، إضافة إلى الوصف البياني والتفصيلي لاعتداءات وحشية محددة صوّرها بابِه بدقة لإثبات ما ذهب إليه من أن الصهيونيين كانوا مذنبين في ارتكاب جرائم حرب تطهير عرقي في فلسطين، يجعل بحد ذاته الكتاب جديراً بالقراءة. وقد كان من المثير للفضول مواجهة ذلك التاريخ، الذي ربما أكون خبرته مع القراء الفلسطينيين الآخرين خلال قراءة هذا الكتاب القيّم؛ لقد جعلني أدرك جسامة ذلك التاريخ الذي كنت أكبته. كم كنت متشككاً، وكم كنت في موقع دفاعي في مواجهة الإقرار بكثير من ذلك الرعب. إذ اخترت إراحة نفسي من الإقرار الكامل بوقوع جرائم الحرب التي تحملتها عائلتي وشعبي. ولم يكن هذا كتاباً استطعت قراءته دفعة واحدة. كما لم يكن مفاجئاً تجنب والدي إبلاغي الكثير مما جرى. فسيكولوجيا الخاسرين تدفعهم إلى عدم الإفصاح، بل توجيه اللوم إلى أنفسهم (كما يحدث الآن في المجتمع الفلسطيني). وبالنسبة إلى والدي، كان دافعه أيضاً النهوض ومواصلة حياته بدلاً من الغرق في تأمل الخسائر. ولا يختلف هذا عن أطفال الناجين من الهولوكوست الذين صمتوا أمام هول الكارثة التي حلت بهم. أولئك الذين اختلقوا من الكارثة صناعة هم فقط من يثيرون الدراما والتهويل.

إن القسم الأكبر من كتاب بابِه، الفصول الثمانية الأولى، يتناول عمليات التطهير العرقي التي وقعت سنة 1948 في مختلف المناطق التي أصبحت دولة إسرائيل. يؤكد المؤلف، في الفصل الثاني، أن الخطة د (دالت) "حسمت مصير الفلسطينيين القاطنين داخل الأراضي التي أراد القادة الصهيونيون الاستيلاء عليها لإقامة الدولة اليهودية العتيدة [....] قضت بطردهم من وطنهم بشكل منهجي وكلي" (ص 28). ويصف الفصل التاسع الأوضاع عقب إعلان دولة إسرائيل مباشرة، وعزل الفلسطينيين ممن بقوا في المدن المتعددة مثل حيفا ويافا، في غيتووات، وانتهاك حرمة الأماكن المقدسة، والاعتداءات الجسدية على الفلسطينيين، وضمنها وقوع حالات اغتصاب. وتأخذ الفصول الثلاثة الأخيرة الكتاب إلى الحاضر. يشرح الفصل العاشر ما يسميه بابِه "محو الذاكرة"، ولا يعرّف هذا المصطلح المستخدم في عنوان الفصل، لكنه يعرض العديد من الأمثلة لتجلياته وآليات التنفيذ. كتب أنه حيث كانت بقايا القرى

الفلسطينية مرئية كانت مهمة الصندوق القومي اليهودي إخفاءها، "لا بزرع الأشجار فوقها فحسب، بل أيضاً بالروايات التي اختلقها لإنكار وجودها" (ص 228). واستنتج بعدها أن "هذه الآلية، المتجذرة عميقاً في النفس الإسرائيلية، تحدث تأثيرها بالتحديد من خلال تحويل أماكن الصدمة والذكرى الفلسطينية إلى فضاءات للاسترخاء والتمتع بالنسبة إلى الإسرائيليين. وبكلمات أُخرى: ما تصوره نصوص الصندوق القومي اليهودي ك (حرص على البيئة) إنما هو، في حقيقة الأمر، مجهود إسرائيلي رسمي آخر لإنكار النكبة وإخفاء فداحة المأساة الفلسطينية" (ص 229).

أحد الأسئلة الأساسية التي لا تزال تحير الكثير من الفلسطينيين اليوم هو كيف تمكنت الأقلية اليهودية في فلسطين سنة 1948 من أن تهزم أغلبية الفلسطينيين وتطردها من أراضيها. يكتب بابِه عن عدة تكتيكات استخدمت في هذا الإطار، ومنها ما كنت أجهله كلياً (وأعتقد أن كثيرين من الفلسطينيين يشاطروونني ذلك). وتواصلت هذه التكتيكات عينها لغاية اليوم ضد الفلسطينيين الذين يعيشون في المناطق الواقعة تحت السيطرة الإسرائيلية، والتي احتلت سنة 1967. وتشمل هذه التكتيكات التالي:

أولاً: إعداد ملفات استخبارية عن عدد كبير من القرى الفلسطينية. يخبرنا بابِه أنه مع نهاية الثلاثينيات كان إعداد الأرشيف قد اكتمل. "وقد تضمن ملف كل قرية تفصيلات دقيقة عن موقعها الطوبوغرافي، وطرق الوصول إليها، ونوعية أراضيها، وينابيع المياه، ومصادر الدخل الرئيسية، وتركيبتها الاجتماعية – الاقتصادية، والانتماءات الدينية للسكان، وأسماء المخاتير، والعلاقات بالقرى الأُخرى، وأعمار الرجال (من سن 16 إلى سن 50)، ومعلومات كثيرة أُخرى" (ص 19). وتوجد اليوم ملفات مشابهة تحمل النمط نفسه من المعلومات عن جميع القرى في الضفة الغربية وقطاع غزة. ويضيف بابِه أن "آخر تحديث لملفات القرى قد جرى في سنة 1947، وكان التركيز فيه على إعداد قوائم بالأشخاص "المطلوبين" في كل قرية. وقد استخدمت القوات اليهودية هذه القوائم، في سنة 1948، في عمليات تفتيش واعتقال كانت تتم فوق احتلال قرية ما. وكان الأمر يتم على النحو التالي: يوقَف رجال القرية في صف، ومن ترد أسماؤهم في القائمة، يتم التعرف عليهم، في معظم الأحيان، من جانب الأشخاص الذين وشوا بهم، لكن هذه المرة تكون رؤوس الواشين مغطاة بكيس من القماش فيه فتحتان عند العينين فقط، كي لا تُعرف هويتهم. وكان الرجال الذين يتم فرزهم يُقتلون على الفور" (ص 21). واستخدم الأسلوب نفسه، خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982 واحتلال جنوبه، لتحديد من سيتم توقيفه في معتقل "أنصار" وسجن "الخيام" اللذين أقامتهما إسرائيل. وتواصل استخدامه في الضفة الغربية وغزة لتحديد أولئك الذين سيكونون ضحايا السياسة الإسرائيلية في "القتل المستهدف".

ثانياً: إن استخدام العملاء يقودنا إلى التكتيك الآخر الذي يذكّر أيضاً بما هو سائد حالياً في الضفة والقطاع من إنشاء شبكة من المخبرين. وكان أحد المنخرطين في هذا الجهد، موشيه باسترناك، الذي أوضح لاحقاً، بعد عدة أعوام، أنه صار لدى الهاغاناه في سنة 1943 "شبكة من المخبرين تستحق التسمية" (ص 20).

ثالثاً: أمر ثالث ثبت أنه كان له أهمية كبرى في سياق "إنشاء منظمة عسكرية فعالة"، وهو "[التدريب] بمساعدة ضباط بريطانيين متعاطفين." وكان أشهرهم أورد تشارلز وينغيت الذي، بحسب بابِه، "جعل القادة الصهيونيين يدركون بصورة أفضل أن فكرة إقامة دولة يهودية يجب أن تقترن بشكل وثيق بتحضيرات عسكرية وإنشاء جيش، أولاً وقبل كل شيء من أجل حماية الأعداد المتزايدة من الأراضي والمستعمرات اليهودية في فلسطين [....]، لكن أيضاً [....] لأن الأعمال المسلحة الهجومية من شأنها أن تشكل رادعاً فعالاً ضد المقاومة المحتملة للفلسطينيين" (ص 15). ويستنتج بابِه: "ومن هنا إلى التفكير في طرد جميع السكان الأصليين بالقوة بات الطريق [....] قصيراً جداً" (الصفحة نفسها). ولقد نجح وينغيت في ربط قوات الهاغاناه بالقوات البريطانية خلال الثورة العربية كي تتعلم على نحو أفضل ماذا يجب أن تتضمن (مهمة تأديبية) ضد قرية عربية" (ص 16). فعلى سبيل المثال، "عرفت قوة يهودية في حزيران/يونيو 1938 أول مرة ماذا يعني احتلال قرية فلسطينية، إذ هاجمت وحدة تابعة للهاغاناه وسرية بريطانية معاً قرية على الحدود بين إسرائيل ولبنان، واحتلتها بضع ساعات" (الصفحة نفسها). وفي بيان مؤرخ 26 حزيران/يونيو 2007، ذكرت منظمة الحق، وهي هيئة فلسطينية تعنى بحقوق الإنسان، أنه

"خلال آذار/مارس 2007 أجرت قوات الاحتلال الإسرائيلي أربعة تمارين عسكرية في قرية بيت ليد في منطقة طولكرم. وعادة ما كانت المناورات العسكرية تستمر من الساعة 2:00 صباحاً حتى 7:00 مساء، ويشارك فيها ما بين 400 و500 جندي إسرائيلي يدخلون القرية سيراً في مجموعات تتألف من 15 إلى 20 شخصاً. وتضمنت التمارين التدريب على قطع كرتونية ذات أشكال بشرية، ومحاكاة إخلاء الجرحى ونقلهم. ولغاية الآن لم يدخل الجنود أي منزل في بيت ليد، باستثناء بيت مهجور وسط القرية، ولم يهاجموا أياً من القرويين."

* * *

انطلاقاً من ملاحظتنا اتساع استخدام القوات اليهودية في الوقت الراهن للتكتيكات التي استخدمت في الماضي لارتكاب التطهير العرقي بحق الفلسطينيين في ذلك الجزء من فلسطين الذي أقيمت عليه دولة إسرائيل، يبدو أن المرحلة التالية من التطهير العرقي بحق الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية وشيكة إذا سنحت الظروف.

لكن التشابه بين التكتيكات المستخدمة في كل من الماضي والحاضر لم يقتصر على الحقل العسكري، وإنما اخترق المجال الدبلوماسي أيضاً. ويمكن عرض كثير من الأمثلة هنا، أحدها يتضمن الوضع القانوني للأراضي التي تحتلها إسرائيل. فعقب احتلال الضفة الغربية (وضمنها القدس الشرقية) وقطاع غزة سنة 1967، رفضت إسرائيل القبول بأنها ملزمة بمعاهدة جنيف الرابعة. وبدلاً من ذلك أعلنت أنها ستلتزم فقط البنود الإنسانية لتلك الأداة القانونية. ويثير هذا في الذهن التمييز الذي اتبعته بالنسبة إلى اللاجئين الفلسطينيين، إذ تنكرت لوضعهم كلاجئين وأصرت على التعامل معهم كـ "مشكلة إنسانية." ويكتب بابِه: "توصل مراقبو الأمم المتحدة في تشرين الأول/أكتوبر إلى بعض الاستنتاجات، وكتبوا إلى الأمين العام – الذي لم ينشر تقريرهم – أن السياسة الإسرائيلية كانت (اقتلاع العرب من قراهم الأصلية في فلسطين بالقوة، أو بالتهديد). وحاول الأعضاء العرب لفت انتباه مجلس الأمن إلى التقرير عن فلسطين، لكن من دون جدوى. وظلت الأمم المتحدة طوال ثلاثين عاماً تقريباً تتبنى بلا مساءلة إبهام أبا إيبن، مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة، الذي كان يتحدث عن اللاجئين كأنهم (مشكلة إنسانية) لا يمكن اعتبار أحد مسؤولاً عنها أو محاسبته عليها" (ص 190).

ويحيي بابِه للقارئ القرى الفلسطينية التي دمرت سنة 1948، إذ يستحضر هندستها المعمارية ومناظرها الطبيعية وحياتها الاجتماعية. ومن خلال السفر على الطريق من القدس إلى تل أبيب، بعد قراءة كتاب بابِه، رأيتُ البلاد كلها كأنها اكتست حلة جديدة. أتى مستعمر غربي وجرّد التلال والسهل الساحلي من القرى القديمة وأراضيها الزراعية وبياراتها، واستبدلها بمساكن جديدة خُططت وبنيت ولونت بشكل مختلف. ومن ثم غطى التلال بأشجار الصنوبر التي حجبت ركام القرى، وحوّلها مما كانت عليه إلى الصورة الموجودة في ذهنه لما يجب أن تكون عليه. وجدت نفسي أنظر إلى البلدات الإسرائيلية، المختبئة بين أشجار الصنوبر، بعيون جديدة. ولأنني ولدت بعد سنة 1948، فإنه لم يكن لديّ أي ذكرى عن القرى القديمة التي زينت هذه التلال قبل أن تدمرها القوات الصهيونية خلال تلك السنة وبعدها. وشعرت أول مرة بالأسى لخسارة تلك المواقع الجميلة، وصرت أرى البلدات الإسرائيلية الجديدة كما أرى المستعمرات في الضفة الغربية؛ فهي في نظري زرع مصطنع غرسته دولة استعمارية. إن إحدى ميزات الكتاب تكمن في إثارته مثل هذا الانطباع القوي لدى القراء، وفي كونه يساعد على رؤية المألوف في ضوء جديد كاشف. والجانب المهم الآخر للكتاب هو أنه لا يركز على الدمار فقط، بل يصف أيضاً تلك القرى القديمة بإحساس صادق بفداحة الخسارة. إن كون المؤلف قادراً على الشعور بالأسى تجاه ما هو فلسطيني صرف، يثبت مدى تحرر الكاتب، وهو يهودي إسرائيلي، من الانحياز.

ومع هذا، قد يقول البعض إن التأثير الذي يتركه الكتاب في القارئ هو الغضب والسخط على الظلم الذي ارتكبته القوات اليهودية في الماضي، ويرتكبه الجيش الإسرائيلي في الحاضر. كما أن الكتاب قد يستخدم أداة للتحريض على التطرف الذي من شأنه فقط أن يقدم ذخيرة إضافية لأولئك الذين ينادون بتدمير الدولة اليهودية.

لكن هذا ليس رسالة الكتاب أو غرضه. كتاب بابِه هو نداء يائس للطرفين، اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين، وللمجتمع الدولي بأن يتصالحوا مع الماضي. وهو يكتب: "لا الفلسطينيون سينجون من اليهود، ولا اليهود سينجون من الفلسطينيين، ولا أي طرف من الطرفين سينجو من نفسه، إذا لم يتم تعريف الأيديولوجيا التي لا تزال تحرك السياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين بصورة صحيحة. المشكلة مع إسرائيل لم تكن قط يهوديتها – اليهودية لها

أوجه كثيرة، وكثير منها يوفر قاعدة متينة للسلام والتعايش – إنما المشكلة هي مع شخصيتها الصهيونية الإثنية. فالصهيونية لا تتوفر فيها هوامش التعددية نفسها الموجودة في اليهودية، وعلى الأخص فيما يتعلق بالفلسطينيين. فهم لا يمكن أبداً أن يكونوا جزءاً من الدولة والفضاء الصهيونيين، وسيستمرون في النضال – ويأمل المرء بأن يكون نضالهم سلمياً وناجحاً. وإذا لم يكن كذلك، فسيكون يائساً وتواقاً إلى الانتقام، وكالزوبعة سيُمْتَص الجميع في ثنايا عاصفة رملية جبارة مستمرة لن تهب في العالمين العربي والإسلامي فحسب، بل أيضاً في بريطانيا والولايات المتحدة، القوتين العظميين اللتين تغذيان، كل منهما بدورها، العاصفة التي ستدمرنا جميعاً" (ص 260 – 261).

وفي الأوضاع الراهنة، من غير المرجح الاهتمام بنداء بابِه. لكنه عبر تعريفنا باعتداءات الماضي – وبطانتها من التخطيط الممنهج – قدم مساهمة مهمة للسلام من خلال عدم الخجل والظهور كشيطان في الوجه من دون خوف.

رجا شحاده
محام وكاتب
مقيم برام الله

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx